مختصر
جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي

اختصره وعلق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

بسم الله الرحمن الرحيم

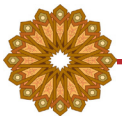

الحَديثُ التَّاسِعَ عَشَرَ

■ عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ قالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا؛ فقالَ لِي: «يَا غُلَامُ؛ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلماتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ؛ فاسْأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ؛ فاسْتَعِنْ باللهِ. واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ علَى أَن يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَم يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وإِن اجْتَمَعُوا علَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وقالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وفي رِوايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ: «احفَظِ اللهَ تَجِدهُ أَمامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ؛ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، واعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ومَا أَصَابَكَ لَم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا».

الشَّرحُ

هذَا الحديثُ يتضمَّنُ وَصَايَا عظيمةً، وقواعدَ كُليَّةً مِن أهمِّ أُمورِ الدِّينِ؛ حتَّى قالَ بعضُ العُلماءِ: «تدبَّرتُ هذَا الحديثَ فأدهشَنِي، وكدتُّ أطيشُ! فوَا أسفِي مِن الجهلِ بهذَا الحديثِ، وقلَّةِ التَّفهُّمِ لمعنَاهُ».

قلتُ: وقدْ أفردتُ لشرحِهِ جزءًا كبيرًا[1].

* فقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «احفظِ اللهَ»:

يَعنِي: احفَظْ حدودَه، وحُقُوقَه، وأوامرَه، ونواهيَه؛ وحِفظُ ذلكَ: هُوَ الوقوفُ عندَ أوامِرِه بالامتثالِ، وعندَ نواهيهِ بالاجتنابِ، وعندَ حدودِهِ، فلا يتجاوزُ مَا أمرَ بِهِ وأذِنَ فيه إلى ما نَهَى عَنه.

فمَن فعلَ ذلكَ، فهُوَ مِن الحافظينَ لحدودِ اللهِ؛ الَّذِينَ

(١) هذَا الشَّرحُ هُوَ «نور الاقتباس في مشكاةِ وصيَّةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنِ عبَّاسٍ»، وهُوَ مطبوعٌ متداوَلٌ.

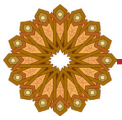

مدحَهم اللهُ في كتابِهِ؛ قالَ تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢-٣٣]؛ وفُسِّر (الحفيظُ) هَا هُنا بـ: الحافظِ لأوامرِ اللهِ، وبالحافظِ لذنوبِهِ؛ ليتوبَ مِنها.

* وقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يحفظكَ»:

يَعنِي: أنَّ مَن حفظَ حدودَ اللهِ، وراعَى حقوقَهُ، حفظَهُ اللهُ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمل، كمَا قالَ تعالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وحفظُ اللهِ لعبدِهِ يدخلُ فيهِ نَوعانِ:

أَحدُهما: حفظُهُ لهُ في مصالِحِ دُنياهُ؛ كحفظِهِ في بدنِهِ، وولدِهِ، وأهلِهِ، ومالِهِ، قالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «هُم الملائكةُ؛ يحفظونَهُ بأمرِ اللهِ، فإذَا جاءَ القَدَرُ خلَّوا عنهُ».

ومَن حَفِظَ اللهَ في صِباهُ وقوَّتِهِ؛ حَفِظَهُ اللهُ في حالِ كِبَرِه وضَعفِ قوَّتِه، ومتَّعَهُ بسمعِهِ وبصرِه وقوَّتِه وعقلِه:

كانَ بعضُ العلماءِ قدْ جاوزَ المئةَ سنةٍ وهُوَ ممتَّعٌ بقوَّتِه وعقلِه، فوثبَ يومًا وثبةً شديدةً؛ فعُوتبَ في ذلكَ؛ فقالَ: «هذِهِ جوارحُ حَفِظناها عن المعاصِي في الصِّغَرِ؛ فحفظَها اللهُ علينَا في الكِبَرِ»[1]!

وعكسُ هذَا: أنَّ بعضَ السَّلَفِ رَأَى شيخًا يسألُ النَّاسَ؛ فقالَ: «إنَّ هذَا ضيَّعَ اللهَ في صِغَرِهِ، فضيَّعَهُ اللهُ في كِبَرِه».

وقدْ يحفظُ اللهُ العبدَ بصلاحِه بعدَ موتِه في ذُرِّيتِه؛ كما قيلَ في قولِهِ تعالَى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]: إنَّمَا حُفِظَا بصلاحِ أَبيهما؛ قالَ سعيدُ بنُ

(١) هَذا العالِمُ هُوَ: القاضِي، أبو الطيِّب، طاهرُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، الطَّبريِّ، وقدْ كان ممتَّعًا بحواسِّهِ كلِّها؛ فكان يقضِي، ويُفتي، ويدرِّسُ، ويحضرُ المواكبُ، حتَّى ماتَ عَن مئةِ سنةٍ وستَيْنِ! والخبرُ مذكورٌ في «البداية والنِّهاية»، في وفَيَاتِ سنة (٤٥٠هـ).

المسيِّبِ لابنِهِ: «لأزيدنَّ في صلاتِي مِن أجلِكَ؛ رجاءَ أَن أُحفَظَ فيكَ»؛ ثُمَّ تلَا هذِهِ الآيةَ.

وقالَ عُمَرُ بنَ عَبْدِ العزيزِ: «مَا مِن مؤمنٍ يموتُ إلَّا حَفِظَهُ اللهُ في عَقِبِهِ، وعَقِبِ عَقِبِه».

وقالَ ابنُ المنكدر: «إنَّ اللهَ ليحفظُ بالرَّجلِ الصَّالحِ ولدَهُ، وولدَ ولدِهِ، والدُّوياراتِ الَّتِي حولَهُ؛ فمَا يزالونَ في حفظٍ مِن اللهِ وسترٍ».

ومِن عجيبِ حفظِ اللهِ لِمَن حَفِظَهُ: أَن يجعلَ الحيواناتِ المؤذيَةَ بالطَّبعِ حافظةً لهُ مِن الأذَى! كمَا جرَى لسَفِينةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مولَى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيثُ كُسِرَ بهِ المركبُ[1]، وخرجَ إلَى جزيرةٍ فرَأَى الأسدَ، فجعلَ يمشِي معهُ؛ حتَّى دلَّهُ علَى الطَّريقِ، فلمَّا أوقفَهُ عليهِ؛ جعلَ يُهَمْهِمُ -كأَنَّهُ يودِّعُهُ- ثُمَّ رجعَ عنهُ[2]!

(١) في البَحْرِ.

(٢) أخرجَه الحَاكِمُ (٣/ ٦٠٦)؛ والطَّبَرَانِيُّ في «الكبير» (٧/ ٨٠، ٨١).

ورُؤِيَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ نائمًا في بستانٍ، وعندَه حيَّةٌ في فمِها طاقةُ نرجسٍ؛ فمَا زالت تذبُّ عنهُ حتَّى استيقظَ!.

وعكسُ هذَا: أنَّ مَن ضيَّعَ اللهَ؛ ضيَّعَهُ اللهُ، فضاعَ بينَ خلقِهِ؛ حتَّى يَدخُلَ عليهِ الضَّررُ والأذَى ممَّنْ كانَ يرجُو نفعَهُ مِن أهلِهِ وغيرِهم؛ كمَا قالَ بعضُ السَّلَفِ: «إنِّي لأعصِي اللهَ، فأعرفُ ذلكَ في خُلُقِ خادِمِي ودابَّتِي».

النَّوعُ الثَّانِي مِن الحفظِ -وهُوَ أشرفُ النَّوعَيْنِ-: حِفظُ اللهِ للعبدِ في دينِهِ وإيمانِهِ؛ فيحفظُه في حياتِهِ مِن الشُّبُهاتِ المُضِلَّةِ، ومِن الشَّهَواتِ المحرَّمَةِ، ويحفظُ عليهِ دينَهُ عندَ موتِهِ؛ فيتوفَّاهُ على الإيمانِ؛ فاللهُ جَلَّجَلَالُهُ يحفظُ المؤمنَ الحافظَ لحدودِ دينِهِ، ويحولُ بينَه وبينَ مَا يُفسِدُ عليهِ دينه، بأنواعٍ مِن الحفظِ، وقدْ لا يشعرُ العبدُ ببعضِها، وقدْ يكونُ كارِهًا لها! كمَا قالَ تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤].

وقالَ الحسنُ -وذَكَرَ أهلَ المعاصِي-: «هانُوا عليهِ فعَصَوْهُ، ولَو عزُّوا عليهِ لعَصَمَهم».

وقالَ ابنُ مسعودٍ: «إنَّ العبدَ لَيَهُمُّ بالأمرِ مِن التِّجارةِ والإمارةِ حتَّى يُيسَّرَ لهُ؛ فينظرُ اللهُ إليه فيقولُ للملائكةِ: اصرفُوه عنهُ؛ فإنِّي إن يسَّرتُه لَه أدخلتُه النَّارَ؛ فيصرِفُهُ اللهُ عنهُ؛ فيظلُّ يتطيَّرُ؛ يقولُ: سبَقَنِي فلانٌ، دهاني فلانٌ! ومَا هُوَ إلَّا فضلُ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ»[1].

* قولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «احفظِ اللهَ، تجدْهُ تُجاهَكَ»، وفي روايةٍ: «أمامَكَ»:

معناهُ: أنَّ مَن حَفِظَ حدودَ اللهَ، وراعَى حقوقَهُ، وجدَ اللهَ معهُ في كلِّ أحوالِهِ؛ حيثُ توجَّهَ يحوطُهُ، وينصُرُهُ، ويحفظُهُ، ويوفِّقُهُ، ويسدِّدُهُ؛ فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٧٣٩) برقم (١٢١٩)، ورجاله موثَّقون.

﴿مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]؛ وهذِهِ المعيَّةُ الخاصَّةُ هِيَ المذكورةُ في قولِهِ تعالَى لموسَى وهَارُونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]؛ فهذِهِ المعيَّةُ الخاصَّةُ تقتَضِي النَّصرَ، والتَّأييدَ، والحفظَ، والإعانةَ، بخلافِ المعيَّةِ المذكورَةِ في قولِهِ تعالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]؛ فإنَّ هذِهِ المعيَّةَ تقتَضِي عِلْمَهُ، واطِّلاعَهُ، ومُراقبَتَهُ لأعمالِهم؛ فهِيَ مُقتضيَةٌ لتخويفِ العبادِ منهُ.

* قولُه ﷺ: «تعرَّفْ إلَى اللهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ»:

يَعنِي: أنَّ العبدَ إذَا اتَّقَى اللهَ، وحفظَ حدودَهُ، وراعَى حقوقَهُ في حالِ رَخائِهِ؛ فقد تعرَّفَ بذلكَ إلى اللهِ، وصارَ بينَهُ وبينَ ربِّه معرفةً خاصَّةً؛ فعرَفَهُ ربُّهُ في الشِّدَّةِ، ورَعَى لهُ تعرُّفَهُ لهُ في

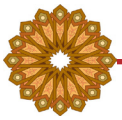

الرَّخاءِ؛ فنجَّاهُ مِن الشَّدائدِ بهذِهِ المعرفةِ. وهذِهِ معرفةٌ خاصَّةٌ تقتَضِي قُرْبَ العبدِ مِن ربِّه، ومحبَّتِهِ لهُ، وإجابتِهِ لدُعائِهِ.

فمعرفةُ العبدِ لربِّه نوعانِ:

* أحدُهما: المعرفةُ العامَّة؛ وهِيَ: معرفةُ الإقرارِ والتَّصديقِ والإيمانِ؛ وهذِهِ عامَّةٌ للمؤمنينَ.

* والثَّاني: معرفةٌ خاصَّةٌ؛ تقتَضِي مَيْلَ القلبِ إلَى اللهِ بالكُليَّةِ، والانقطاعَ إليهِ، والأُنسَ بهِ، والطَّمأنينةَ بذكرِهِ، والحياءَ مِنهُ، والهيبةَ لهُ.

وهذِهِ المعرفةُ الخاصَّةُ هِيَ الَّتي يدورُ حولَها العارفونَ؛ كمَا قالَ بعضُهم: «مساكينُ أهلُ الدُّنيَا؛ خرجُوا مِنها ومَا ذَاقوا أطيبَ مَا فِيها»! قيلَ لهُ: ومَا هُوَ؟ قالَ: «معرفةُ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ».

ومعرفةُ اللهِ -أيضًا- لعبدِهِ نوعانِ:

* أحدهما: معرفةٌ عامَّةٌ؛ وهِيَ: عِلْمُه -سُبحانَه- بعبادِهِ،

واطِّلاعُه علَى مَا أسرُّوهُ ومَا أعلنُوهُ.

* **الثَّانِي:** معرفةٌ خاصَّةٌ؛ وهِيَ تقتَضِي محبَّتَهُ لعبدِهِ، وتقريبَه إليهِ، وإجابةَ دُعائِهِ، وإنجاءَهُ مِن الشَّدائِدِ؛ وهِيَ المشارُ إليهَا بقولِهِ ﷺ -فيمَا يحكِي عَن ربِّهِ-: «ولَا يزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ؛ فإذَا أحببتُه؛ كنتُ سمعَهُ الَّذِي يسمعُ بِه، وبصرَه الَّذِي يُبصِرُ بِه، ويدَهُ الَّتِي يُبطِشُ بِهَا، ورجلَهُ الَّتِي يمشِي بِها، فلَئِنْ سألَنِي لأُعطِينَّهُ، ولَئِنِ استعاذَنِي لأُعيذَنَّهُ»[1].

وبالجملةِ فمَن عاملَ اللهَ بالتَّقوَى والطَّاعةِ في حالِ رَخائِهِ، عاملَهُ اللهُ باللُّطفِ والإعانةِ في حالِ شِدَّتِهِ.

وخرَّجَ التِّرمِذيُّ مِن حديثِ أَبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَن سرَّهُ أَن يستجيبَ اللهُ لهُ عِندَ الشَّدائِدِ؛

(١) هذَا الحديثُ أخرجَهُ البُخَارِيُّ؛ وهُوَ الثَّامن والثَّلاثونَ مِن «الأربعين النَّوويَّة» وسيأتي شَرْحُه إنْ شاءَ الله.

فلْيُكْثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ»[1].

* وقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذَا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذَا استعنتَ فاستعِنْ باللهِ»:

هذَا مُنتزَعٌ مِن قولِهِ تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ السُّؤالَ للهِ هُوَ: دُعاؤُهُ، والرَّغبةُ إليهِ؛ وَ«الدُّعاء هُوَ العِبادَةُ»[2].

* وقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُفِعتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ» -وفي روايةٍ-: «جَفَّ القلمُ بما هوَ كائنٌ»:

هُوَ كنايةٌ عَن تقدُّمِ كتابةِ المقاديرِ كلِّها، والفراغِ مِنها مِن أمدٍ بعيدٍ؛ فإنَّ الكتابَ إذَا فُرِغَ مِن كتابتِهِ، وطالَ عهدُه، فقدْ رُفِعتْ عنهُ الأقلامُ، وجَفَّتِ الأقلامُ الَّتِي كُتِبَ بهَا مِن

(١) أخرجَهُ التِّرمِذيُّ (٣٣٨٢)؛ وذكرَهُ الشَّيخُ الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٥٩٣).

(٢) هذا لفظُ حديث نبوي أخرجه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وغيرهما، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

مِدادِها، وجَفَّتِ الصَّحيفةُ الَّتِي كُتِبَ فِيها بالمِدادِ المكتوبِ بهِ فِيها. وهذَا مِن أحسنِ الكناياتِ، وأبلَغِهَا.

* قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فلَو أنَّ الخَلْقَ جميعًا أرادُوا أَن ينفعوكَ بشيْءٍ لَم يَقْضِه اللهُ؛ لم يقدِرُوا عليهِ، وإنْ أَرادُوا أُن يَضرُّوكَ بشيْءٍ لَم يكتُبْهُ اللهُ عليكَ؛ لم يقدرُوا عليهِ»[1].

المرادُ: أنَّ مَا يصيبُ العبدَ في دُنياهُ ممَّا يضرُّه، أَو ينفعُه، فكلُّه مقدَّرٌ عليهِ؛ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

* قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «واعْلَمْ أنَّ في الصَّبرِ علَى مَا تكرهُ

(١) هذه رواية الإمام أحمد، ورواية الترمذي بالمعنى.

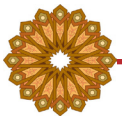

خيرًا كثيرًا»[1] يَعنِي: أنَّ مَا أصابَ العبدَ مِن المصائبِ المؤلمةِ، المكتوبةِ عليهِ، إذا صبرَ عليها، كانَ لهُ في الصَّبرِ خيرٌ كثيرٌ.

وللمؤمنينَ بالقضاءِ والقَدَرِ في المصائبِ دَرَجتانِ:

إحداهُما: أنَ يرضى بذلكَ، وهذه درجةٌ عاليةٌ رفيعةٌ جدًّا؛ قالَ جَلَّجَلَالُهُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١]؛ قالَ علقمةُ: «هِيَ المصيبةُ تصيبُ الرَّجلَ؛ فيعلَمُ أنَّها مِن عندِ اللهِ، ويسلِّمُ لَها ويرضَى».

وقالَ أبو الدَّرداءِ: «إنَّ اللهَ إذَا قضَى قضاءً أحبَّ أن يُرضَى بهِ».

وقالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ: «أصبحتُ ومَا لِي سرورٌ إلَّا في مواضعِ القضاءِ والقَدَرِ».

---

(١) هذه أيضًا رواية الإمام أحمد، ولم ترد هذه الزيادة في رواية الترمذي.

فمَن وَصَلَ إلَى هذِهِ الدَّرجةِ، كانِ عيشُهُ كلُّهُ في نعيمٍ وسرورٍ؛ قالَ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]؛ قالَ بعضُ السَّلَفِ: «الحياةُ الطَّيِّبةُ: هِيَ الرِّضَا والقناعةُ».

وأهلُ الرِّضَا تارَةً يُلاحِظونَ حكمةَ المُبتَلِي، وخِيرتَه لعبدِهِ في البلاءِ، وأنَّه غيرُ متَّهَمٍ في قضائِهِ؛ وتارَةً يلاحِظونَ ثوابَ الرِّضَا بالقضاءِ، فينسِيهم ألمَ المَقضيِّ بهِ؛ وتارةً يلاحِظون عظمةَ المُبتَلِي وجلالَه وكمالَه، فيستغرقونَ في مُشاهدةِ ذلكَ حتَّى لا يشعرونَ بالألمِ. وهذَا يصلُ إليهِ خواصُّ أهلِ المعرفةِ والمحبَّةِ؛ حتَّى ربَّما تلذَّذُوا بمَا أصابَهم؛ لملاحظتِهم صدورَه عَن حبيبِهم.

الدَّرجةُ الثَّانيةُ: أَن يصبرَ علَى البلاءِ، وهذا لمَن لَم يستطعِ الرِّضَا بالقضاءِ؛ فالرِّضَا فضلٌ مندوبٌ إليهِ مُستحَبٌّ، والصَّبرُ واجبٌ علَى المؤمنِ حتمٌ.

قالَ الحسنُ: «الرِّضَا عزيزٌ، ولكنَّ الصَّبرَ مُعَوَّلُ المؤمنِ».

والفَرْقُ بينَ الرِّضَا والصَّبرِ:

أنَّ (الصَّبرَ): كفُّ النَّفسِ وحبسُها عَن التَّسخُّطِ عِندَ وجودِ الألمِ، وتَمنِّي زوالِ ذلكَ، وكفُّ الجوارحِ عَن العملِ بمُقتَضَى الجَزَعِ.

و(الرِّضَا): انشراحُ الصَّدْرِ وسعتُهُ بالقضاءِ، وتَركُ تمنِّي زوالِ ذلك المؤلِم، وإنْ وجدَ الإحساسَ بالألمِ، لكنَّ الرِّضَا يخفِّفُهُ؛ لمَا يباشرُ القلبَ مِن رَوح اليقينِ والمعرفةِ. وإذَا قَويَ الرِّضَا فقدْ يزيلُ الإحساسَ بالألمِ بالكليَّةِ كمَا سبقَ.

* وقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإنَّ معَ العُسْرِ يُسْرًا»: هُوَ مُنتزعٌ مِن قولِهِ تعالَى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧].

ومِن لطائفِ أسرارِ اقترانِ الفَرَجِ بالكَرْبِ، واليُسْرِ بالعُسْرِ:

أنَّ الكَرْبَ إذَا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهَى، حصلَ للعبدِ الإياسُ مِن كَشفِهِ مِن جهةِ المخلوقينَ، وتعلَّقَ قلبُهُ باللهِ وحدَه؛ وهذَا هُوَ حقيقةُ التَّوكُّلِ علَى اللهِ؛ وهُوَ مِن أعظمِ الأسبابِ الَّتي تُطلَبُ بِهَا الحوائِجُ؛ فإنَّ اللهَ يكفِي مَن توكَّلَ عليهِ؛ كمَا قالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وأيضًا فإنَّ المؤمنَ إذَا استبطأَ الفَرَجَ، وأَيِسَ منهُ، بعدَ كثرةِ دُعائِهِ وتضرُّعِهِ، ولَم يظهرْ عليهِ أثرُ الإجابةِ، رجع إلَى نفسِهِ باللَّائمةِ، وقالَ لَها: إنَّما أُتيتُ من قِبَلِكِ، ولَو كانَ فيكِ خيرٌ لأُجِبْتُ. وهَذَا اللَّومُ أحَبُّ إلَى اللهِ مِن كثيرٍ منَ الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يُوجبُ انكسارَ العبدِ لمولاهُ، واعترافَه لهُ بأنَّه أهلٌ لمَا نزلَ بهِ مِن البلاءِ، وأنَّه ليسَ بأهلٍ لإجابةِ الدُّعاءِ؛ فلذلكَ تُسرِعُ إليهِ -حينَئذٍ- إجابةُ الدُّعاءِ، وتفريجُ الكَرْبِ؛ فإنَّه تعالَى عندَ المُنكسِرةِ قلوبُهم مِن أجلِهِ.

عسَى مَا ترَى ألَّا يدومَ وأَن ترَى ... لـهُ فَـرَجًـا ممَّا ألـحَّ بـهِ الـدَّهْـرُ

عسى فَــرَجٌ يـأتِـي بـهِ اللهُ إنـهُ ... لَـهُ كـلَّ يــومٍ في خَليقَتِهِ أمـرُ

إذَا لَاَح عُسْرٌ فـارْجُ يُسْرًا فإنَّه ... قضَى اللهُ أنَّ العُسْرَ يتبعُهُ اليسْرُ

❊❊❊

التصميم الداخلي للكتاب
ثروت سلطان
Tharwat Sultan
للتواصل:
00201019530152
TharwatSultan@yahoo.com